سيمياء الحواس في فوضى الحواس

أ/بايزيد فاطمة الزهراء
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم الأدب العربي، جامعة – بسكرة –

ملخص المداخلة:

تخترق الكتابة الإبداعية نواميس الواقع لتشكل عالما خاصا بسـردها المثـالي، فتمحو الحدود الفاصلة بين المتخيل والواقع، لتتصاعد تدريجيا وتكتب حتى الحواس.

هي "فوضى الحواس" إذا عالم يحوي جميع الأحاسيس عبر ثنائيـات (الصـمت واللغة) الإبداعية، فكانت لغة السرد المستغانمي بحق لغة دينامية مبدعـة تكتشـف هـذه الفوضى الحواسية من خلال تداخل الإحساس باللغة الإبداعية وفوضوية الحواس الخمسة الموظفة في الرواية توظيفا انزياحيا خرج بالحواس إلى مدلولات أخرى سنكتشفها في ظل دراسة سيميائية لكل حاسة من الحواس مع إيضاح دلالاتها في الرواية على حدة.

سيمياء الحواس في فوضى الحواس

في عصرنا الحديث توقف الفيلسوف الفرنسي"ميشال فوكو"في كتابـه "الكلمـات والأشياء، حيث قال:«إن المتشابهات تقوم على كشف هذه التوقيعات وفكِّ رموزها...ولهذا فإن وجه العالم مغطى بالشعارات والحروف، والأرقام، والكلمات الغامضة.» .[1]

تتدفق الحالة الإبداعية التي هي في النهاية روح، وهذه الروح هي شيفرة جينيـة أيضا لها موسيقاها وأكوانها، وأبجدياتها، وبياضاتها المتحركة في صمت يـتكلم ليحـرق الصمت، وليس باستطاعة أي كان أن يسمع هسيسه وبن يسمعه سوى المبتعد عن حواسه الأولى، وحواس الصمت الأولـى ليـدخل فـي حـواس اللغـة اللانهائيـة المكتوبـة بالمحو...والثغرة البدائية لهذا الولوج لا بد وأن تكون عن طريق الحواس المشوشة التـي

تتحول فيها حاسة السمع إلى بصر وبصيرة، وحاسة البصر إلى حاسة سمع جديدة، وحاسة لمس وحاسة غياب. ثمّ يتخطى الصمت الحواسي حركاته ليدخل في الحدوس المشوشة التي تحوّل متحولات القارئ، والنص، والصمت إلى احتمالات وتأويلات منفتحة على التعدد، ولا بد لملامسة وسماع ورؤية ذلك الجمال السحري والتفاعل معه.[2]

كما هو الحال في رواية فوضى الحواس لـ: أحلام مستغانمي، نرى عالما ماثلا مليئ بالأحاسيس والشعور بالأمومة والتعلق بالكلمات ولا ضير من ذلك«ما دامت القاصة تحتجب خلف بطلة عاقر تجدِدُ حياتها بتوليد الكلمات وبما يتناسل من قلمها من كائنات حبرية تتدرج على القرطاس وتُسردُ بالكلمات»[3].

ولكي يُمارس الإبداع النسوي فوضوية سلطته ويصبح مجرد من العلامات«وليس في طبع الثقافة الذكورية أن تتحمل أو تتقبل واقعية الجسد المؤنث، ومن الضروري لهذه الثقافة أن يكون التأنيث قصيّا ووهميًا لكي تظل الأنوثة مجازًا، ومادة للخيال. وفي هذه الحالة فقط تكون الأنوثة جذابة ومطلوبة في المخيال الثقافي وتنتهي بمجرد تحوّلها إلى واقع محسوس».[4]

وبهذا تجعل الكاتبة من جسدها هامشا، وتصبح الورقة هي الجسد الذي ينقل مشافهة عبر اللغة. [5]

لهذا فقط يلح علينا هذا التساؤل لمعالجة هذه الدراسة:

كيف يستطيع الجسد أن يصبح عنصرا ضمن نسق رمزي يتكثف وسط ألغام الحواس؟

أولا: تعريف السيمياء:

إذا كانت السيمياء أو نظام العلامات علم يبحث في اللغات، والإشارات وقد اعتبر "دوسوسير" اللغة المنطوقة والمكتوبة جزءًا من السيمياء حيث قال:«اللسان عبارة عن نسق من الدِلالات التي تعبر عن المعاني»[6]، فإن ايكو"Eco" عدّ الحقول التي تتضمنها السيمياء، وما يدخل تحت نطاقها جاءت على نحو: علامات الحيوانات، علامات الشم، الاتصال بواسطة اللمس، مفاتيح المذاق، الاتصال البصري، أنماط الأصوات والتنغيم، التشخيص الطبي، حركات وأوضاع الجسد، الموسيقى، اللغات الصورية، اللغات المكتوبة، الأبجديات المجهولة....وهي بجملتها مواضيع تمت إلى السيمياء بصلة كبيرة»[7]

ثانيا: تعريف الحواس:

ولما نأتي لتعريف الحواس: فالحواس واحدها الحاسة، وهي القوة التي بها تُدرك الأغراض الحسية، واكتساب معنى الحاسة منقول من قولهم: أحسست: أي علمت بالشيء. قال تعالى:π **هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ**ι.[8]

ومن هذا الباب قولهم من أين حسِسْتَ هذا الخبر؟ أي تخبّرته، والاسم من "الحِسّ" وإدراك الأعراض الظاهرية والإحاطة بالمعرفة الحسية تتم عبر أعضاء جسمية أجملها الله سبحانه وتعالى في معرض حديثه عن خلق الإنسان. قال تعالى: π **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**ι. [9]

وكانت الغاية من السمع والبصر، وغيرها من الأعضاء إدراك الأغراض الخارجية والمشاهدات الحسية فتكتمل معرفته بما يدور حوله مصداقا لقوله تعالى: π **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ι. [10]

والعلم الذي يؤخذ من طريق الأعضاء"العين، اليد، اللسان، الأذن" يسمى الإحساس لأن بها يتم الحِسُّ. قال ابن الأثير:«الإحساس العلم بالحواس». [11]

ولارتباطها بالحس، والحِس نابع من المشاعر سميت في بداية عهدها (مشاعر الإنسان)جاء في معاجم اللغة، ويقال للمشاعر الخمس الحواس وهي: اللمس، الذوق والشم، والسمع، والبصر.

أما مصطلح الحواس الخمس فهو متأخر اقتضته طبيعة الحياة وتطور اللغة. [12]

ثالثا: تعريف الإحساس:

الإحساس يتم عبر القوى الحاسة، وهو أخذ صورة المدرك بنحو من الأنحاء وكل حاسة تدرِكُ محسوسها، وتدركُ عدم محسوسها، أما محسوسها فبالذات وأما عدم محسوسها كالظلمة للعين، والسكوت للسمع وغير ذلك. [13]

والحواس الخمسة تنقسم إلى قسمين: الحواس الداخلية أو الخفية، والحواس الخارجية. والخارجية تنقسم بدورها، باعتبار كيفية الإحساس إلى قسمين:

أ- قسم يتم فيها الشعور بالمحسوس عن طريق الاحتكاك المباشر وهي: حاسة اللمس، وحاسة الذوق.

ب- قسم يتم فيها تنقل الإحساس بالمحسوس من دون الاحتكاك به احتكاكا مباشرا، وهي: السمع، والنظر، والشم.

وعلى الرغم من ذلك فإنها تحتاج إلى وسط لنقل الأشياء، ففي حالة السمع تحتاج إلى الهواء لنقل الأمواج الصوتية، وفي حاسة النظر ينبغي وجود أشعة ضوئية تسقط على الأجسام المرئية، أما في الشم فيقتضي وجود وسيط من هواء أو ماء ينقل ذرات الرائحة من الجسم الذي يبعثه إلى الأنف عضو الشم. (14)

أما الحواس الداخلية فهي قليلة لخفائها، واعتيادنا ممارسة الحواس الخارجية، نذكر منها على سبيل المثال: حاسة الشعور بالرضى، وحاسة الشعور بالاطمئنان.... « فإذا كانت الحواس الخمس في جسم العالم الذي هو الإنسان الكبير، فحاسة اللمس مناسبة لطبيعة الأرض، لأن الإنسان يحسُّ بجسمه كله، وحاسة الذوق والتي هي اللّسان مناسبة لطبيعة الماء إذ بالمائية، والرطوبة التي في اللّسان، والفم تدرك طعوم الأشياء...وحاسة الشم مناسبة لطبيعة النار، إذ بها وبالنور تُدرك محسوساتها، والحاسة السامعة مناسبة لطبيعة الفلك الذي هو مسكن الملائكة...وذلك أن حاسة السمع محسوساتها كلها روحانية»(15)

وللحواس آلات تعمل بها وفق تقنية منتظمة، بحيث يخرج سلوكها إلى مرتبة يمكن معها تسميتها بلغة الكيمياء. وعلى حدِّ ترتيب الفلاسفة فإن الحواس الخمسة كما يلي:

1- اللمس، 2-الذوق، 3-الشم، 4- السمع، 5- البصر.«وعلّة الترتيب ترجع إلى كثافة الحاسة، واشتمالها على قوى كثيرة».(16)

- دراسة العنوان "فوضى الحواس"

وإذا كانت رواية "فوضى الحواس" قد وظفت الحواس الخمس بطريقة إبداعية، فإن اللافت للنظر هو عنوان الرواية، والتكثيف الدِلالي من خلال وحدات الرواية التي تتمركز كلها حول عنوان الرواية، بحيث يتضح للمتلقي أن حواس الكاتبة في "فوضى أو عتمة دائمة". والفوضى: تعني عدم الاتزان واستقرار، الحركة غير المنتظمة.

وقد استعملت لفظة الحواس للتعميم ولم تطلق هذه الفوضى على حاسة معينة، بل شملت الفوضى الحواس ككل، وتقصد من وراء ذلك أن الحواس الخمسة في فوضى وعتمة دائمة الشرود والحركة.

وبهذا يكون العنوان"فوضى الحواس" بؤرة النص ككل بحيث تتجلى من خلاله كل الوحدات المركزية التي عملت على بناء النص الروائي، وتأخذ المتلقي الدهشة من هذا الغموض الذي يعتري العنوان لمحاولة الكشف عن سِّر الغموض في الرواية.«وعملية

الإدهاش لا تعتمد على العتمة لأن عتمتها مضيئة ولأنها تعتمد على تفعيل الإضاءة، والإشعاع ليتسرب متقاطعا...لأنه تتحول فيه اللغة عن بعدها الأول(المكتوب، السطحي، المعجمي)إلى بعدها المتحرك...وبذلك تظهر اللغة عملية خيميائية وليست كيميائية كما قال "آرثر رامبو" في "كيمياء الكلمة"أي أن تتحوّل اللغة إلى علائقها(النسقية) و(الرؤيوية) و(المخيلتية) و(الحواسية) و(الحدسية) و(ما وراء ذلك) لتبدو للوهلة الأولى ممحوة تمامًا».[17]

فكانت "فوضى الحواس" بحق من خلال أبوابها الخمس تمثل الحواس الخمسة في فوضويتها الإبداعية: ①بدءًا②دومًا③طبعًا④حتمًا⑤قطعًا، وكلها وحدات تصب في بؤرة المركز(العنوان) وكأنها بهذا التصريح بحداثة تدعو إلى هجرة من الجسد الريفي إلى جسد الحداثة، وذلك في أساليب تنوّعت وتعدّدت بحسب خلفيات الكاتبة.

لنقف مثلا عند الباب الأول"بدءًا" بأول جملة بدأت بها الرواية«عكس الناس كان يريد أن يختبرها الإخلاص، أن يجرّب معها متعة الوفاء عن جوع أن يربي حبًا وسط ألغام الحواس».[18]

ومن هنا يتضح لنا أن الجسد أصبح عنصرا ضمن نسق رمزي تكثف داخله مجموع الاستيهامات، فيبدأ هذا الجسد من ولادة حب وسط ألغام الحواس.

ليصبح الجسد في الرواية بمثابة العصب الرئيس لينتج المعادلة غياب الجسد يعني غياب الرواية، وجملة(ألغام الحواس)تعادل أن هذه الحواس لا تعيش فوضى فحسب بل في حالة تأهب للانطلاق، فهي كاللّغم الموقوت والمخفي الذي لا يعرف وقت انطلاقه ولا مكان وجوده لخطورته ليس إلاّ.

وبذلك فهي«تحوّل الجسد إلى أيقونة Icône بل عملة لاستمالة القارئ، فهي تمارس الكتابة في الطابوهات».[19]

وتتكرر لفظة الحواس عدّة مرات وفي تراكيب مختلفة قد تأتي أحيانا على ذكرها بلسان الآخر.«هو رجل الوقت سهوا حبه حالة ضوئية في عتمة الحواس».[20]

وتؤكد الرواية«ارتباط الجسد بالشعور ارتباطا جدليا عميقا ينقل مفهومه من شكل ضمني ذي أبعاد بصرية لافتة إلى تجربة تحقق هوية الذات وخطابها وتفسر وجودها في الحياة».[21]

فالعتمة تعني⇦الظلام⇦ويعني هذا الأخير عدم الرؤية والإيضاح.

والحواس في عتمة⇦أي فاقدة للرؤية البصرية⇦التركيز على حاسة البصر إذ أن العلاقة القائمة بين الظلام والضوء تكمن فقط في وحدة الأثر النفسي داخل ذات البطلة.

ويأخذ العنوان"فوضى الحواس" وحدات أساسية عدّة تتركز جلّها حول حالة الفوضى أو العتمة فيكون كالتالي:

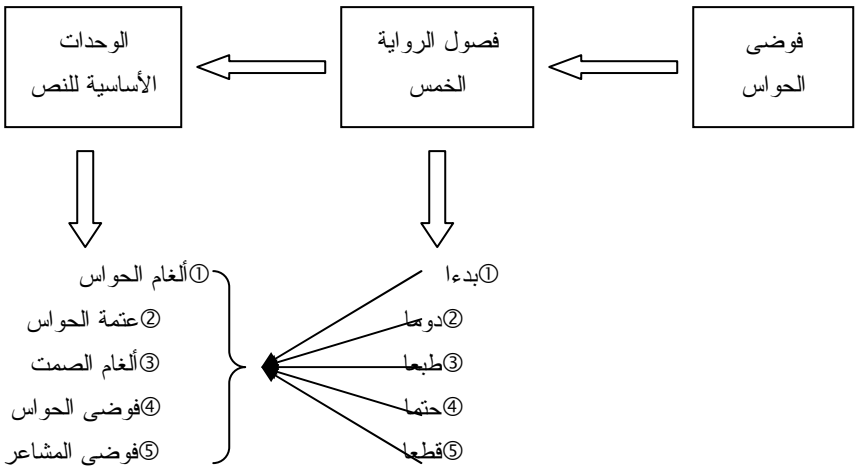

فتتفرغ الفصول الخمسة للرواية عبر وحدات النص الروائي التي تندرج ضمن العنوان "فوضى الحواس" بالترتيب: ألغام الحواس- عتمة الحواس- ألغام الصمت- فوضى الحواس- فوضى المشاعر، كما ورد في النص (المستغانمي) من خلال الشكل المبيّن أعلاه.

وبذلك فإن تماهي هذه الوحدات في البؤرة الرئيسة للعنوان تعني تشكل الحواس الخمس عبر أبواب الرواية الخمسة، وكلها لا تخرج عن إطار (الفوضى، والعتمة).«وكأن قدراتي العقلية قد تعطّلت لتنوب عنها حواسي».[22]

وحين تنتقل إلى فلسفة حاسة الآخر (الرجل) تقطع الشك باليقين لتعود إلى حواسها مرة أخرى قائلة«واضعا أمامه جيشا وأحصنة وقلاعًا من ألغام الصمت استعدادًا للمنازلة».[23]

- اللغة وجسد العالم:

إن إحالة اللغة إلى جسد والجسد إلى اللغة وتماهيهما تجعل من الضروري لمفصل الكينونة القديم، والإشارة إلى تلك اللحظة التي أنشأ الله فيها جسد الكون بكلمة كن.[24] وإن اقترنت لفظة الإحساس بالمشاعر فإن فلسفتها في الرواية توحي أيضا إلى تكثيف العنان، وتحيلنا إلى العديد من التساؤلات والفوضى«لا بد أن يترك في نفسك كثيرا من فوضى المشاعر وفوضى الأسئلة خاصة عندما ترى اسمه كما اخترعته أنتْ».[25]

ويتبدى لنا قول جاك دريدا:«إذا كان الأسلوب هو الرجل، فإن الكتابة المرأة» محاولة بذلك تخطي وتجاوز المعروف والمألوف ومغالطة الواقع.

«كنت أنثى القلق، أنثى الورق الأبيض...وفوضى الحواس لحظة الخلق»[26]، تحاول هنا أحلام مستغانمي أن تخلع بكتابتها ثوب الروتين الإبداعي والكلاسيكي لتكشف بكل إبداعاتها على الحواس، فتخلع هذه الحواس مرة أخرى،« كما تخلع الفصول صفاتها وهي تدخل في الزمان، وكما يخلع البحر موجاته على شواطئه ليرتدي موجه الأعمق والمعتق أكثر باحتمالات اللهب والحلم والتماوج المتصلة باتصال لا مرئي وفق تنغيمات النجوم والأفلاك».[27]

وبذلك ستكتشف ما يحمله العنوان من فوضى في الحواس وسندرس سيميائية كل حاسة باعتبار أن الحواس الخمسة كلّها موظفة في الرواية، ولنبدأ بترتيب الحواس الخمسة حسب ما ورد في الرواية: اللمس، 2-الذوق، 3-الشم، 4- السمع، 5- البصر.

لنكشف عاما إبداعيا مليئا بعوالم الاتصالات والمشاعر الباطنية والخارجية، و«لنجرّب معًا كيف نترائ كيف نكشف هذا العالم الأكبر المنطوي فينا، الحاضر الغائب في ذات الآن ذاك الاحتمالي اللامرئي أو ذاك اللامنظور من الواضح أو ذاك..العمق المرفوع كما اصطلح عليه».[28]

ولنكتشف ما تخبؤه إحساسات الكاتبة الإبداعية؟!

«ببساطة هي عوالم وكوامن، وكوائن، وظواهر وظهور وتجلّ وإختفاء، وغياب، إنه مغامرة مع اللغة في اللغة من حيث اللغة هي (أنا وأنت) و(هو) و(هم) و(هي) والأشياء، والكون، والماضي الآتي، والزمان واللازمان، والمكان واللامكان، والعدم، والوجود...فأعماق كل شيء تغرينا وما نفعله ليس بأكثر من أن كلامنا يكتب روحه ويقرأ ما تعيه هذه الروح».[29]

– وإذا كانت السيمياء تعن دراسة أساليب التواصل والأدوات المستخدمة للتأثير في التلقي قصد إقناعه أو حثه أي أن موضوع السيمياء هو التواصل حسب رأي "بوسينس".[30]

ولذلك سندرس سيميائية كل حاسة على حدة.

1/ حاسة اللمس: «اللمس ملامسة الحاسة للمحسوس، والقدرة على إدراكه والتواصل إلى ترجمته ومعرفته وهو يأخذ طريقهُ عبر آلية شائعة عضوها منتشر في بدن الإنسان وليست وقفا على عضو خاص...ويؤدي اللمس إلى التعرف على أصناف كثيرة، وإدراك معانٍ جليلة وهي الحار والبارد، الرطب واليابس...الخشن، الناعم...» .[31]

وتأتي هذه الحاسة في قول البطلة«هو الذي يعرف كيف يلامس أنثى تمامًا كما يعرف ملامسة الكلمات بالاشتغال المستتر نفسه».[32]

وكأن وظيفة اللمس هنا تنطوي على ملامسة الكلمات، فيحل اللمس محلّ حاسة السمع وفي هذا المزيج تتولد علاقة جديدة بين الحواس للتواصل تملأ الهوة بين المجرد والحسيّ.

فملامسة الكلمات هنا توحي بالثقة، الاستعداد، الإصرار، الانتباه، الشعور بالراحة والاطمئنان، التذوق، الخوف، الحذر.

فاللغة كما يقول هيدغر تعمل«بشكل واعٍ أو لاواعي على صياغة هويته وإعلان ذاته للآخر وللآخرين».[33]

فإذا كانت اليد إحدى وسائل حاسة اللمس، فإن توظيفها في الرواية جاء توظيفا جماليا يوحي ببراعة الروائية بكلمة« كانت يده تعيد الذكرى إلى مكانها وكأنه بقفا كلمة دفع كل ما كان أمامهما أرضًا».[34]

فتتحول اليد من وسيلة للمس الذي هو إحساس داخلي إلى وسيلة لاسترجاع الذكرى المفقودة إلى مكانها، بحيث تشتغل حاسة اللمس هنا على وتيرة الكلام فتحل محلّ اللّسان، وتدفع بكل شيء محسوس ومادي أرضا، وتخرج هنا إلى دلالات عدّة: عودة الذكريات، الشعور بالغبطة، الرضى، التأمل، الماضي، الحياة، الارتياح أي كل إحساس داخلي تشعر به الأنثى.

«أما الأنوثة الحقة فهي أنوثة الأرق، والأسرة غير المرتبة، والأحلام التي تنضج على نار خافتة، وفوضى الحواس لحظة الخلق، الفوضى التي تشبه "الكاوس" الكوني قبل أن يستقر

ويحدد مساراته في مداراته الثابتة» [35]. هي حقا«أنثى عباءتها كلمات ضيقة تلتصق بالجسد وجمل قصيرة لا تغطي سوى ركبتي الأسئلة».[36]

وبهذا تصير حاسة اللمس تعادل الكلام، فتصبح المعادلة:

* حاسة اللمس⇦ كلمات ضيقة⇦ جمل قصيرة⇦ حصول التلامس مع الجسد⇦ لا تغطي الجسد كله.

وكأن حاسة اللمس انقلبت إلى عباءة من الجمل والكلمات تلتصق بالجسد المادي ولا تغطي سوى الركبتين، وفي هذا الانزياح اللغوي الذي يكشف عن ما هو خفي ومستتر والذي يتخذ من الألفاظ المحسوسة وسيلة للتعبير عن المعاني المجردة اللامفهومة بحيث تصبح الأحاسيس هنا البؤرة الحقيقية التي يرتكز حولها الوصف والخلفية الأساسية لكل المشاهد، حيث مزجت بين الحسي والمجرد عبر حاسة اللمس التي حلّت محل الكلام من الجمل الضيقة التي تتشكل عباءة تلتصق بالجسد لا تغطي الركبتين.

لتدل دلالة واضحة على: الاستفهام، والغموض، التردد، الحيرة، الالتباس، وتلتبس حاسة اللمس مرة أخرى في توظيف غاية في الروعة.

« وهي مازالت أنثى التداعيات تخلع وترتدي الكلمات عن ضجر جسدي على عجل».[37]

فتصبح حاسة اللمس هنا لباسا من الكلام تخلعه أنثى فوضى الحواس وترتديه على عجل هروبا من ضجر هذا الجسد، ولذلك فإن«التأويل لا يأتي إلى هذه الوقائع من خارجها، إنه يتخللها ويتعقب أنماط وجودها ويطاردها ليمسك بالبؤر التي تلوذ بها».[38]

إنها توحي بالسكون المؤسس للكلام والإيماءات والفعل تشتغل حركية الجسد على حاسة اللمس. وبذلك فإن لحظة الضجر تعني لحظة القلق، والحيرة، والاسترخاء، فتخلع عباءة الكلمات أي تنحو إلى السكون والهدوء وقلة الكلام والفوضى.

«وبما أن السرد هو دائما إنزياح عن زمنية عادية، من أجل تأسيس زمنية جديدة تهيئ للتجربة التي ستروي بؤرتها وإطار وجودها فإن لحظة الاسترخاء هي عودة بالجسد إلى سكون واعد بحركات آتية...فإن العودة بالجسد إلى لحظة سكونه معناه تحديد الحالة التي سيكون عليها الفعل الصادر عنه إستقبالا».[39]

2/ حاسة الذوق: «الذوق هو إدراك طعوم المواد المذاقة، واللّسان أداته الخاص به...ويتم تذوق الطعم بعد ملامسة المادة المذاقة براعم الذوق المنتشرة على سطح اللّسان العلوي،

وفي طرفه وجانبيه، والجزء الخلفي منه، ثم يتوقف على ذوبان جزيئات المادة المستطعمة في اللُّعاب الموجودة على اللسان، ولا يمكن للإنسان أن يتذوق بعض المركبات إلاّ ذائبة في لُعابه».[40]

– وحاسة الذوق تدرك الأطعمة التي تتراوح ما بين الحلاوة والملوحة وهو تالٍ للّمس«ويتلاقى معه كما يتلاقى مع الشم، تظهر مجانسته اللّمس في أمر وهو أن المذاق يُدرك في أحايين كثيرة بالملامسة ويفترقان في أن نفس الملامسة لا تؤدي الطعم، ما أن نفس ملامسة الحار مثلا تؤدي الحرارة».[41]

وبذلك فإن أي انزياح لهذه الحاسة(الذوق) يُعد لعبًا لغويًا بتوظيفه الحاسّة الحقيقية فنقف عند قولها:«والملح يتسرب عبر خط الهاتف يجتاحنا بين استبداد الذاكرة وحياء الوعود».[42]

فجملة(الملح يتسرب عبر خط الهاتف)تؤدي فعل وجود الملح ف الكلام، أي حصول فعل التذوق السّماعي وكأن الأذن قامت مقام الفم لتذوق الكلام عبر الهاتف، فكان الكلام بذوق الملح وهي نتيجة لحصول التذوق الذي حصل من ملامسة الأذن لكلام. وهذا الانزياح للحاستين(حاسة اللمس، وحاسة الذوق) كانت دلالتهما توحي إلى القوة، السيطرة، الذكرى، التاريخ، السلطة، ولهذا الانزياح اللغوي لاستعمال حاسّة الذوق نجد الروائية أحلام تملك«لغة شاعرية تشكل جسد هذا النص البديع، واللغة السردية التي تفيء بنية عالمها وهندسته بين المنحنى الحُلمي والمنحنى الواقعي».[43]

بيد أن بطلة أحلام التي تقف بين كوكبة من الرجال فيهم زوجها العميد في الجيش الجزائري، وأخوها المقرّب من الأصوليين، وخالد رسام الذكرى، وطيف الأب الشهيد، ورجال الوهم الكتابي، لا تنظر إليهم نظرة معادية أو عنيفة إلاّ بمقدار ما يلابس وجودهم الاجتماعي، أو السياسي، رجولة الجبروت، والتسلط والعنفوان الذكوري أو التعسف العسكري.[44]

«يُغلق البحر قميصه يتفقد ليلا أزرار الذكرى، يغلقها أيضا بإمعان حتى لا يتسرب الملح إلى الكلمات».[45]

والبحر هنا يدل على الجسد، إنه الجسد الذي يمتد على حواسه المبهمة ليستنطق منمنماته فيظهر في ثياب مغلقة عليه بأزرار الذكرى كي لا يتسرب الملح إلى الكلمات الصادرة

عن هذا الجسد عبر حاسة الذوق. وهذا الجسد يمتد بامتداد البحر الذي يوحي: إلى العطاء، الخصوبة، الحياة، العمق، القلق، الدهشة، الانعتاق، الأمل، الذكرى والأسرار.

– وإذا كان البحر يغلق ليلا قميصه ليصبح في النهاية ذاك الجسد لكي يمنع حاسة الذوق من تذوق الملح الذي يقابل هنا الكلمات فإن ذلك يعني أن هذا الجسد يمنع خروج الأسرار فهو كالليل الذي يمهد للبحر حالة الإغلاق يوحي بالظلمة والعتمة، الانمحاء، الخفاء، السِّرية، الكتمان...إلخ لكي لا تعاود الذكرى أدراجها فتؤلم هذا الجسد الساكن ليلا بهواجسه المكتوبة عبر فوضى الحواس الممتزجة بعضها ببعض.

وبذلك فأحلام مستغانمي اشتغلت على الجسد الأنثوي موظفة فيه أهم الحواس الخارجية بنحو من البراعة اللغوية البارعة.

3/ حاسة الشم: الشم حقيقة إدراك معنى المشموم، تتم العملية بعد إستنشاق الإنسان الروائح التي تصل إلى الأنف، عضو حاسة الشم، تنتقل الرائحة المشمومة عبر أحدى الوسائط، الهواء أو الماء الذي يظهر بشكل بخار يتبخر من ذي الرائحة...وأسماء الروائح التي يدركها الإنسان غير واضحة الرسوم، شأن الألوان...ونظرا لصعوبة تصنيف الروائح ووضع أسماء دقيقة ومتعددة لكل واحد منها، ظهرت محاولات عملت على تحديد معنى الرائحة الأولية وتصنيف المواد...[46]

فبعدما قام العالم جون آمور John. E. Amoor بحصر مئات من المواد المعروفة التي تتميز بروائح خاصة جاء بعده«العالم الفسيولوجي زوارد ماكير H.Zwaarde Maker بتصنيف آخر يحتوي على الروائح التسع التالية: * البصلية(البصل، الثوم)،* الأمبروزية(المسك)،* العطرية(التوابل ونواتج الاحراق)، *الأيثرية(الفواكه، والخمور)* الكريهة، * الزكية(الأزهار)،* الماعزية(الدهون المتعفنة)، * المسببة للغثيان(اللحم المتعفن..).[47]

وقد كان للعطور دور واضحا في "فوضى الحواس" لإثارة المشاعر والذكرى بين البطلة والبطل الكتابي الوهمي، وقد كان العطر دليل بينهما على نداء الحب.«وعى الصعيد الاجتماعي أدت العطور دورًا بارزًا في تجمّل المرأة وتزيّنها قياسًا إلى غيره من مواد التجميل لتكون محببة إلى الآخرين مرغوبا فيها. قال أبو العباس ثعلب خير النساء الخَفِرة العَطِرة المطرة، وشر النساء المَذِرة الوَذِرة، القَذِرة»*.[48]

ويصفح العطر عن جو فاضح يكشف صدى النفس ورغبة الذات عن طريق حاسة الشم«رشت بعطرها غرفته لما يكفي لإبقائه خمسة عشر يوما محاصرا بها رغم وجوده مع أخرى قبلها، كانت كليوباترا ترش أشرعة باخرتها بعطرها حتى تترك خلفها خيطا من العطر حيث حلّت».[49]

فبات من التجلّي القول بصحة العبارة القائلة" تعرفها من رائحتها".

وقد عدّ العطر كاللغة الملفوظة، أو المكتوبة لدى الكثير من الشعراء شأن العطر لغة لها مفرداتها وحروفها وإبجدياتها ككل اللغات.

والعطر أصناف وأمزجة
منها ما هو تمتمة...
ومنها ما هو صلاة...
ومنها ما هو غزوة بربرية... [50]

لذلك فحاسة الشم هنا دلت دِلالة اللغة فهو عبارة عن رسالة تحكي تناهي الرائحة فيها العبارة، تثير الأشجان في بعض الأحيان...وعانيها متنوعة ومفرداتها متعددة وهي تشهد يقينا بصحة إطلاق مصطلح(اللغة) عليها أو مصطلح أدق(لغة الكيمياء) .[51]

ولغة الشم عجيبة في التواصل مع من يمكن الوصول غليه بغيرها من الحواس والانتهاء إلى أغوار لا يقوى غيرها عليه.

والرجل يلعب لعبته في تقييم لغة العطر«تذكرت أيضا أن قصتي مع هذا الرجل وُلدت بسبب كلمة وعطر وربما بسبب هذا العطر وحده».[52]

فيوقض العطر بحاسة الشم جميع الحواس الأخرى لتصبح على أهبة الاستعداد الكامل لتلقي الرسالة العطرية والتي توحي عبر هذا المثال على الذكرى، الماضي، اللقاء، الموعد،...الخ وللعطور أصنفة معينة ورسائل متعددة على حدّ قول الشاعر نزار القباني:

هناك رجال يفضلون العطور التي تهمس...
ومنهم من يفضلون العطور التي تصرخ...
ومنهم من يفضلون العطور التي تغتال... .[53]

وبذلك تتعدد لغة العطر بتعدد أنواعه، وما يثير فينا من ذكريات وآمال، وآلام، وماضي،...الخ فيثير فينا ما تثيره اللغة وبدرجة ربما أكبر من التواصل الذي تحققه اللغة ذاتها.

4/حاسة السمع:الأصوات مادتها الألفاظ وخاماتها وهي من الناحية الفيزيائية أمواج(Waves)تحتوي على تضاغط وتخلخل، والصوت مادة تحتاج إلى وسط ينقلها لأنها لا تنتقل في الفراغ، والأجسام التي هي وسائط نقل الصوت قد تكون صلبة وسائلة أو غازية ويحدث الصوت بعد وصول الأمواج الصوتية عبر الهواء إلى الأذن».[54]

وهناك جدل قائم بين أيهما أحسن السمع أم البصر؟ ونقلت المصادر أن من الناس من قال: إن السمع أفضل من البصر لأن الله تعالى حيث ذكرهما في كتابه العزيز قدّم السمع على البصر حتى قوله تعالى:π **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**ا.[55]، والتقدير واضح للسمع على حاسة البصر، ولأن«السمع شرط في النبوة بخلاف البصر، ولذاك لم يأت في الأنبياء ρ من كان أصم وجاء فيهم من طرأ عليه العمى».[56]

إضافة إلى كون أن حاسة السمع بسبب في استكمال العقل ولمجمل العلوم والمعارف والبصر لا يتصرف إلا فيما يقابله من المرئيات، كما أن السمع أصل للنطق. وقد اشتغلت أحلام على حاسة السمع اشتغالا إنزياحيا و«كيف إذا لا يكون هذا التداخل بين اللغة والكتابة، والجسد، وبين العري واللباس، والقلق الابداعي، والمعرفي وقلق الخلود والامتداد حقيقة لا مجازًا؟.[57]

ومثلما ربطت الكتابة الإبداع بالجسد وبالحواس فإن هذا«الجسد يتحلى حسب شروط الجمال الصناعي، ويتحرك حسب مواصفات الحُسن البلاغي، والدِلالة النهائية لهذه الصفحة المفتوحة هو الفتنة».[58]

فيأتي السمع في حياء عبر صمت متداخل بين البطلة والبطل الكتابي الوهمي«دون أن يتوقف أثناء ذلك عن بث ذبذبات حديث يقال حتما في عتمة الحواس، وأنا نفسي لم أجد معه شيئا يمكن أن يقال، وقد إنطفأ معه الكلام لتشتغل به ساحات الصمت».[59]

– فالصمت في الواقع ظاهرة تتساوى في الأصل على الأقل مع ظاهرة الكلام، ومن ثم فهو ظاهرة إيجابية تنطوي على زعمين:

الأول: أن الصمت شرط ضروري للكلام، وأنه ينسجم مع الكلام على نحو ما.

والثاني: أن الصمت قد يكون مرغوبا فيه لذاته، وعلى فترات مؤقتة، وهو ما يسميه "دونهاور" بالصمت العميق.[60]

وإذا كانت حاسة السمع تتوقف وظيفتها على سماع الكلام، فإن الكلام الذي كان هنا يدور صمتًا في عتمة الحواس. فانطفأت حاسة السمع مع الكلام الذي اشتغل في مساحات الصمت.

توحي هنا بأن اللجوء على الصمت يعني فشل اللغة، وفشل الكلام بإتاحة الفرصة لاكتشاف الذات وسبر أغوارها. كما يؤدي حدوث الصمت في عتمة الحواس إلى إخفاء الحقيقة، والحذر، التحفظ، وتجنب البوح، والكشف، ولهذا فإن«هارولد بنتر يفرق بين التوقف عن الكلام وبين الصمت على أساس أنهما نوعان مختلفان من الفعل الأول يقاطع أو يقطع الحديث أو هو يتوقف في موضوع معين في حين أن الثاني يتنقل من موضوع إلى موضوع.[61]

ومن المحتمل أن يحمل الشخص الصامت مشاعر مختلفة أو مبررات متعارضة تمتزج فيها الحواس في عتمة مبهمة«صوته يخترق صمتها لا يقول (ألو) لا يقول(نعم) لا يقول(من)» .[62] ففي أحيان كثيرة كان هذا الصمت المراد، فالكلام يعني«التعبير عن حياء الأنثى وإذعانها وصبرها وغفرانها أو ربما التعبير عن حنقها واستيائها وغضبها وتحديها.[63]

وهناك بعدان آخران في استخدام الصمت يقومان بوظيفتين تعارض الواحدة منها الأخرى: البعد الأول هو الحرج أو الارتباك في العلاقات الحميمية...عن طريق الصمت دون التعبير اللفظي، غير أن الصمت من ناحية أخرى قد يستخدم أداة للتعبير عن التحدي الاجتماعي،... وهكذا تظهر صفة أساسية في الصمت هي الالتباس أو الغموض وازدواج الدِلالة Ambiguity مما قد يؤدي إلى خلط عند الملاحظ الخارجي الذي يحاول أن يستخرج معنىً للسلوك الصامت عن الآخرين.[64]

لذلك تصمت عاصفة الجسد في بدن المرء وتهدأ أصوات الأرض وتسكن وتصمت الأحاسيس وتفنى في عتمة الحواس عبر حاسة السمع فتمتزج بدلالة حياء الأنثى والخجل«أيها الليل الذي مساؤه(ربما) صباحك(نعم)فكم كان مساؤك(لا)يا أيها المساء».[65]

وقد يكون الصمت حالة نفسية يكتسب من خلالها المرء معرفة«كما أنه قد يكون تعبيرا عن لون من ألوان الجهل، وانعدام الثقة، وقد يقوم الصمت في حالة الحب والصداقة بوظيفة الارتباط ودعم العلاقة، وقد يكون علامة على الكراهية، وتفكك العلاقة، وانحلالها».[66]

فالكلام هو ضرب من الاتصال اللفظي في حين إن الصمت اتصال غير لفظي، وهما ضربان منفصلان من الاتصال.

5/ حاسة البصر: البصر حاسة آلتها العين،...تحتوي العين أيضا على أوساط شفافة، بالإضافة إلى القرنية التي تسمح مرور الضوء إلى داخلها، وهي العدسة البلورية والسائل المائي، والسائل الزجاجي...وتعمل العين على رؤية الجسم، ويتم ذلك آليا بعد وقوع الضوء عليه.(67)

كما قد تبدي العين حسب الحالة النفسية انطباع الذات إما بالارتياح أو السخط. كما أنشد الإمام الشافعي قوله:

وعينُ الرِّضا عن كل عَيْبٍ كَليلةٌ

ولكنَ عَينَ السُّخطِ تُبدِي المساوِيا.(68)

وتشتغل أحلام الشاعرة، والكتابة على فلسفة حاسة النظر والرؤية من زاوية هي قمة في الإبداع النسوي«هو الذي بنظرة يخلع عنها عقلها، ويلبسها شفتيه، كم كان يلزمها من الأيمان لكي تقاوم نظرته».(69)

فاللغة المتبادلة بينهما هي لغة العيون بما توحيه من أحاسيس تجعل حاسة النظر تطغى على العقل فتفقده الاتزان، وهي إذا«لغة متبادلة بين طرفين متساويين تبدأ بالعين بوصفها أداة إرسال واستقبال مما يؤدي إلى استجابة القلب بأن يفهم لغة العين وإشاراتها ويحدث الاشتهاء...ولكن الاشتهاء نفسه يصبح لغة للتواصل والترابط لتعزيز رغبة الجسد بالجسد الآخر.(70)

وفي المقابل نجد الاشتغال على عدمية حاسة البصر في فلسفة تؤدي على جمال من نوع ثانٍ«لقد أصابني الحب يومها بعمى الألوان وأربك فيّ أيضا حاسة النظر».(71)

فتتضح بذلك المعادلة التالية:

عدم وجود الرؤية وإيضاحها⇦ العمى المؤقت للبصر⇦ نتيجة الوقوع في الحب⇦ عدم فاعلية حاسة البصر نتيجة الحالة النفسية.

وفي هذا دلالة على أن البصر كحاسة أحيانا يخطئ النظر بجمالية الأشياء، فيقع في متاهات ومطبّات. غير أن فقد حاسة البصر أحيانا لا يمنعنا من تذوق الجمال الروحي الذي يحيا به ذواتنا. وهذا ما يتمثل في قولها:«كنت أتمنى لو أراها بعيون بورخيس عند ما يرى بوينوس إيرس بعينين فاقدتي البصر عساني أحبها دون ذاكرة بصرية».(72)

ويعتمد فاقد هذه الحاسة على اللمس في التواصل مع مجتمعه واختبار ما حوله، قد يلمس لآيات جمال حبيبته عن طريق الحسِّ بدل النظر، وهذا ما يدل على أن الجمال جمال الروح لقول الشاعر:

ولا تبكي على يوميك أو تأسي على الأمس
إليك الكون فأنتشقي جمال الكون باللمس
خذي الأزهار في كفيك فالأشواك في نفسي.[73]

وبذلك لا يعني عدم وجود البصر عدميته الشعور والإحساس بالواقع المادي(الأشياء)أو المجرد(الخيال) فتصبح المعادلة:

عدم وجود حاسة البصر⇦ وجود الإحساس والشعور النفسي⇦ بالجمال الروحي الخارجي.

– وأخيرا وبالتوازي مع هذا الانبهار اللغوي نجد الروائية تقف في كثير من بؤر الرواية موقف عالم النفس لتضيء نصها السردي المستغانمي وتميزه عن بقية النصوص الأخرى فتمظهره عبر الاشتغال على الحواس ودلالتها من خلال (لغة العيون، الإشارات، الأصوات...) وكل ما يثير القراءة في هذا العالم العميق والذي يُطل على امرأة مثقفة، كاتبة وشاعرة مترددة بين إيجاد ذاتها وأنوثتها في الكتابة، والكلمات واكتشاف عالمها خارج وداخل عوالم فوضى الحواس.

الهوامش:

(1) فاطمة الوهيبي، المكان والجسد والقصيدة، المواجهة وتجليات الذات، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، ط1، جويلية 2005، ص16.

(2) غالية خوجة، بعيدا عن الحواس الأولى، ارجوحة بن اللامعروف واللامالوف. www.azzaman.com/azz/articles/05/05/26-2002.

(3) أحمد زين الدين، مجلة الاختلاف، العدد 03، ماي 2003، ص35.

(4) عبد الله محمد الغذامي، المرأة واللغة 2(ثقافة الوهم) مقاربات حول المرأة والجسد واللغة، المركز الثقافي، المغرب، الدار البيضاء، ط2، 2000، ص42.

(5) محمد نور الدين آفاية، الهوية والاختلاف، المرأة والكتابة والهامش، إفريقيا الشرق، المغرب، 1988، ص42.

(6) محمد كشاش، اللغة والحواس، رؤية في التواصل والتعبير بالعلامات غير اللسانية، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001، ص19.

(7) المرجع نفسه، ص20.

(8) سورة مريم، الآية 98.

(9) سورة السجدة، الآية 09.

(10) سورة البلد، الآية 8-10.

(11) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج1، ت: طه الزاوي وآخرون، المكتبة العلمية، بيروت، د ت.

(12) محمد كشاش، اللغة والحواس، ص29.

(13) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(14) المرجع نفسه، ص30.

(15) إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفا وخلّان الوفا، مكتبة الإعلام الإسلامي، (قم) طهران، جمادي الأولى 1405، مج3، ص124-125.

(16) محمد كشاش، اللغة الحواس، ص32.

(17) غالية خوجة، بعيدا عن الحواس الأولى، ارجوحة بن اللامعروف واللامألوف. www.azzaman.com/azz/articles/05/05/26-2002.

(18) أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، دار الآداب للنشر، ط11، 2001، ص09.

(19) نقلا عن عبد النور إدريس، هتاف الجسد بين الحرية والتحرر في السرد النهائي العربي .www.aslim.net

(20) فوضى الحواس، ص10.

(21) محمد صابر عبيد، سيمياء الإيروس من فضاء المخيال إلى نداء الجسد، الملتقى الوطني الرابع السيمياء والنص الأدبي، 29/28/نوفمبر 2006، بسكرة، الجزائر، ص355.

(22) فوضى الحواس، ص74.

(23) المصدر نفسه، ص21.

(24) فاطمة الوهيبي، المكان والجسد والقصيدة، ص13.

(25) فوضى الحواس، ص272.

(26) المصدر نفسه، ص124.

(27) غالية خوجة، بعيدا عن الحواس الأولى، ارجوحة بن اللامعروف واللامألوف. www.azzaman.com/azz/articles/05/05/26-2002.

(28) الموقع نفسه، نفس المقال.

(29) جريدة الزمان، ع2112، 2002/05/27.

(30) محمد كشاش، اللغة الحواس، ص32.

(31) المرجع نفسه، ص32-33.

(32) فوضى الحواس، ص09.

(33) محمد نور الدين آفاية، الهوية والاختلاف، ص36.

(34) فوضى الحواس، ص23.

(35) أحمد زين الدين، فوضى الحواس لأحلام مستغانمي، ص36.

(36) فوضى الحواس، ص124.

(37) المصدر نفسه، ص12.

(38) سعيد بنكراد، .http:/said bengrad.free.fr/art10/htm.page03

(39) الموقع نفسه نفس المقال.

(40) محمد كشاش، اللغة الحواس، ص36-37.

(41) المرجع نفسه، ص38.

(42)فوضى الحواس، ص330.

(43) أحمد زين الدين، فوضى الحواس لأحلام مستغانمي، ص36.

(44) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(45) فوضى الحواس، ص330.

(46)محمد كشاش، اللغة الحواس، ص40.

(47)المرجع نفسه، ص41.

* - الخَفِرَة: الحيييّة

- المطِرة: اللازمة للسِّواك.

- الوّذِرَة: التي ريحها ريح الوذر وهو اللّحم.

(48) المرجع نفسه، ص137.

(49) فوضى الحواس، ص193.

(50) نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، مج1، منشورات نزار القباني، بيروت، ط15، 1983، "الكبريت في يدي ودويلاتكم من ورق"، ص145

(51) محمد كشاش، اللغة الحواس، ص139.

(52) فوضى الحواس، ص262.

(53) نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، مج1، ص145-147.

(54)محمد كشاش، اللغة الحواس، ص41.

(55) سورة البقرة، الآية 18.

(56)محمد كشاش، اللغة الحواس، ص41.

(57)فاطمة الوهيبي، المكان والجسد والقصيدة، ص18-19.

(58) عبد الله محمد الغذامي- المرأة واللغة، ص73.

(59) فوضى الحواس، ص55.

(60) إمام عبد الفتاح إمام، دراسة في معاني الصمت، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ع86، 2004، ص80.

(61) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(62) فوضى الحواس، ص157.

(63)إمام عبد الفتاح إمام، دراسة في معاني الصمت، ص83.

(64)المرجع نفسه، ص82.

(65)فوضى الحواس، ص256.

(66)إمام عبد الفتاح إمام، دراسة في معاني الصمت، ص83.

(67)محمد كشاش، اللغة الحواس، ص43.

(68)المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(69)فوضى الحواس، ص256.

(70)عبد الله محمد الغذامي، المرأة واللغة، ص30.

(71)فوضى الحواس، ص09.

(72) المصدر نفسه، ص331.

(73) علي محمود طه، الديوان، ص179.